

الانطباعات الاقتصادية للرحالة العرب عن روسيا

أ.د. خليل حسن الزركاني

مركز إحياء التراث العلمي العربي

جامعة بغداد

لقد التفت الرحالة العرب دراسة إلى النواحي الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى الجغرافية والطبيعية عن روسيا، ويبدو أنه لديهم معلومات عن الروس منذ بدء ظهورهم في شرقي أوربا، وسنقدم في هذا البحث بعضاً من هذه المعلومات وحسب تسلسلها الزمني لأن ذلك في الحقيقة يساعد على فهم تطور الروس مع ملاحظة أساسية هي إن البعض من هؤلاء الرحالة قد يكتفي بإيراد معلومات سابقة يشترك مع غيره في الأخذ من نفس المصدر وأحياناً يسلكون سبيل البر من الأندلس أو أرض الفرنجة بأحد طريقين

اولهما إلى شمال أفريقيا ومصر وفلسطين (الرملة) ثم إلى دمشق فالكوفة فبغداد فالبصرة ومنها إلى الأهواز وفارس وكرمان إلى السند ثم الهند ثم الصين وثانيهما عبور الأراضي السلافية وراء روما (الشرقية) إلى خليج مدينة الخزر ثم في بحر جرجان ثم بلخ إلى ما وراء النهر وأواسط آسيا إلى الصين. ويبدوان الطريق الثاني هو طريق التجار من اليهود (الرادانية)⁽¹⁾

أولاً : ابن خرداذبة:

نلاحظ أن ابن خرداذبة يميز بين الصقالبة والروس، وبيناً أن موطن الروس في أقاصي أرض الصقالبة وراء نهر الدون، وأنهم يأتون عن طريق الأندلس، وهذه المعلومات تشير بوضوح إلى الشماليين.

ثانياً: ابن الفقيه (289 هـ / 902 م):

إما ابن الفقيه فقد أخذ من مصدر ابن خرداذبة ويكاد يورد نفس النص، إلا أنه يتحدث عن تجار الصقالبة بدلاً من التجار الروس⁽²⁾. ولكننا نلاحظ أنه يدخل الروس وحتى الشماليين ضمن الصقالبة في نص آخر⁽³⁾. إن معلومات ابن الفقيه لا تبرر رأي باسكفيج بأن ما ورد في ابن خرداذبة بأن الروس (جنس من الصقالبة) إضافة دخيلة عليه بل يأخذ هذا بالمفهوم العام للفظ الصقالبة⁽⁴⁾. ويبدو لنا أن رأي لفجكي اقرب للقبول هنا حين يرى أن كلمة (صقالبة) تعني السلاف أو الذين يتكلمون بالسلافية⁽⁵⁾

وبعد هذا نلاحظ أن ابن خرداذبة لا يشير إلى أرض روسية، يسمى نهر تيس (نهر الصقالبة)⁽⁶⁾ ويبدو لي أنه يصف الوضع في الفترة التي تكون فيها كيان سياسي للروس في شرق أوربا.

لكن ابن الفقيه يورد ملاحظة أخرى حين يقول (أو يأخذون) أي التجار الصقالبة) في هذا النهر الذي يقال له نهر الصقالبة حتى يجيئون إلى خليج الخزر

فيعشرهم صاحب الخزر ثم يصيرون إلى البحر الخراساني (أي بحر قزوين) فر بما خرجوا بحر جان فباعوا جميع ما معهم فيقع جميع ذلك إلى الري⁽⁷⁾ فهو يذكر نهر الصقالبة أي نهر تنيس أو الدون ويبين إنهم يخرجون من بحر الصقالبة إلى هذا النهر، وهذا يعني بوضوح إنهم يخرجون من بحر أزوف الذي يصب نهر الدون فيه وهذه أول إشارة إلى أن التجار كانوا يأتون من بحر أزوف.

ثالثاً: ابن رسته (300هـ / 912م):

لقد أورد ابن رسته بعض المعلومات الجديدة عن الروس، ولعله أخذها عن مسلم بن أبي مسلم الأجرمي⁽⁸⁾ فهو يميز بين الروس والصقالبة ويذكر أن الروسية يعيشون في جزيرة وسط بحيرة وتبلغ سعة الجزيرة مسيرة ثلاثة أيام (مشا جر وغياض)، وهي غير صحية ومرطبة.

وهنا تجابهنا مشكلة تحديد محل أقامتهم. فيرى مينورسكي إن نص ابن رسته يشير إلى إقامة شيوخ النورمان (الشماليين) في منطقة البحيرات الروسية الكبرى وأن مدينتهم هي نوكرود وأن هذه الكلمة تعني في الاسكندنافية (مدينة البحيرة)⁽⁹⁾ ويبين فرنادسكي أن أوصاف ابن رسته تنطبق على مدينة تموتور وكان في شبه جزيرة تمان في القرم آذ يحفها البحر الأسود من الجنوب ومضيق كرج من الغرب وبحر أزوف من الشمال، وهي في الواقع جزيرة لأنها مفصولة عن البحر بأذرع دلتا نهر كوبان. كما أن المشاجر والفياض التي يذكرها ابن رسته تكثر على ضفاف الأقسام السفلى من نهر كوبان⁽¹⁰⁾.

ويظهر لي إن الرأي الثاني اقرب إلى القبول. فغريزي (الذي اخذ من مصدر ابن رسته) يبين أن روس جزيرة تقع في البحر، ويتبين إن ملكهم يأخذ العشر من التجار⁽¹¹⁾ ويقول البيروني في حديثه عن بحر نيّطس (وحوله الأرمن وطوايف من الأتراك والروس والصقلب)⁽¹²⁾ ويذكر الوطواط (محمد بن إبراهيم الوراق) أن الروس يعيشون في جزيرة في بحر ميوطس، أي الأزوف، وهو إنما ينقل من مصادر سابقة ويعطي مبار كشاه (فخر الدين) في تاريخه معلومات مماثلة⁽¹³⁾ ويذكر ابن رسته إن الروس لهم مدن كثيرة، ويلقب ملكهم ب((خاقان))، ويبدو إن هذه إشارة إلى مطلع القرن التاسع للميلاد حين أصبحت دولة هي (خاقانية أزوف)⁽¹⁴⁾.

وكان الروس يقومون بغارات في قواربهم على الصقالبة ويسبون بعضهم ليبعونهم للخزر والبلغار، ولم تكن لديهم زراعة بل كانوا يأكلون مما يحملونه من اراض السلاف⁽¹⁵⁾. وهم يعتمدون على سيوفهم، وإذا ولد الرجل منهم مولود قدم إلى المولود سيفاً مسلواً فألقاه بين يديه وقال له: لا أورتك مالا وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك⁽¹⁶⁾.

ويضيف الى ذلك بأنه ليس لهم عقار ولا قرى ولا مزارع بل أن مهنتهم المتاجرة بالسمور والسنجاب وأنواع أخرى من الفراء يبيعونها نقداً بالدنانير

والدراهم. ولابد ان نلاحظ التضارب بين إشارته الى إنهم مدن كثيرة وبين قوله إنه لاقرى لهم وهذا يعني ان معلوماته تشير الى فترتين مختلفتين.

وببين ابن رسته ان للروس سيوفا ممتازة هي السيوف السليمانية. وقد تحدث البيروني عن طرق معالجة حديد السيوف الروسية وعن مصدرها ⁽¹⁷⁾. وأشار مسكويه الى روعة هذه السيوف والى (مضائها وجودتها) ⁽¹⁸⁾. وتحدث ابن رسته عن تماسكهم، فإذا استنفرت طائفة منهم خرجوا جميعا مقاتلين وقاتلوا متحدين العدو. وإذا اختصم اثنان ولم يوافق احدهم على حكم الملك في الخلاف احتكما الى السيف ولجأت قبيلتاها إلى القتال. وهم يكرمون ضيوفهم ويحسنون الى من يلوذ بهم. ولا يسمحون لأحد إن يسئ معاملتهم ويعتدي عليهم. وإذا استغاث بهم احد في مكروه أو ظلم أعانوه ودفعوا عنه. وقد يحملون سيوفهم دوما لان أحدهم لا يثق بالآخر. وقد عرفوا ببسالتهم وبقسوتهم المتناهية في الحرب، وكانت غزواتهم عادة في القوارب والسفن. وإذا مات احد كبارهم حفروا له قبرا كبيرا مثل البيت الواسع ووضعوا فيه ملابسه وأسورته وكثيرا من الطعام والشراب وقدرا من النقود الذهبية والفضية وجعلوا امرأته المفضلة معه في القبر وهي حية ثم يسد عليها القبر فتموت هناك. ويورد مسكويه معلومات مباشرة عنهم في سنة 332هـ في معرض حديثه عن حماتهم على مراغة ويقول (فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه وثيابه وألته وزوجته أو غيرها من النساء وغلამه ان كان يحبه على سنة لهم) ⁽¹⁹⁾. ويذكر ابن رسته ان الروس كانوا يرتدون الثياب النظيفة ويتأنقون بملابسهم ويتزينون بالا سورة الذهبية. ولهم سراويل واسعة يتخذ الواحد منها في مائة ذراع (إذا لبسها اللابس منهم جمعها على ركبتيه وشدها عند هما) ⁽²⁰⁾ ويذكر ابن رسته عن دور الأطباء بينهم فيقول (ولهم أطباء منهم يحكمون على ملكهم شبه أرباب لهم وإذا حكمت الأطباء لم يجدوا بدا من الانتهاء الى أمرهم). وهؤلاء يأمرؤنهم بتقديم الضحايا من البشر والكراع ⁽²¹⁾ ويرى البعض في هذا النص إشارة الى مجلس الحكم لدى الروس ⁽²²⁾ نلاحظ إن ابن رسته يميز بين الروس والصقالبة (السلاف)، ويشير إلى أن أول دولة لهم (الخابانية)، التي تبودولة عسكرية وتجارية. وهم يتاجرون بانتظام مع شعوب الفولجا وكانت سمكرز محطة لهم على دلتا نهر كوبان ⁽²³⁾ وليس لهؤلاء الروس زرع بل تجهزهم القبائل السلافية التابعة لهم بالمواد الغذائية الأخرى، ويفهم من غرد بزي إنهم كانوا يجمعون الضريبة من السلاف بصورة منتظمة، وترد الإشارة إلى عاداتهم وبعضها غريب مثل تقديم الضحايا البشرية ودفنها مع الموتى وفي قول ابن رسته بعض التناقض. فهو يذكر إن الروس ليست لهم قرى ، ثم يرجع ويقول إنهم (لهم مدائن كثيرة)، ولعل ذلك ناشئ عن اتصال المعلومات بفترتين مختلفتين ، بداية وتوسع ⁽²⁴⁾

رابعاً: المقدسي (350هـ / 966م):

لقد اخذ المقدسي صاحب كتاب البدء والتاريخ، من المصدر الرئيسي لابن رسته وأورد معلومات متسقة، إذ يقول (وإما الروس فإنهم في جزيرة وبيئة تحيط بها بحيرة، وهي حصن لهم ممن أرادهم وجملتهم في التقدير زهاء مائة ألف إنسان، وليس لهم زرع ولأضرع، يتأخم بلدهم الصقالبة فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم ويسبونهم. قالوا وإذا ولد لأحد منهم مولود القي إليه سيف وقيل له ليس لك الاماتكسبه بسيفك. ولهم ملك آدا حكم بين الخصمين بشئ فلم يرضيا به قال تحاكما بسيفكما فأى السيفين كان احد كانت الغلبة له)⁽²⁵⁾.

هنا يعتبر المقدسي الجزيرة حصناً للروس من الطامعين، ويبين إنهم يغيرون على جيرانهم الصقالبة فيأخذون منهم المواد الغذائية والسبي. وهو يجعل عددهم مائة ألف ليس لهم زرع ولأضرع، واعتمادهم على السيف.

خامساً: الاضطخري (31- 321هـ / 930 - 933م):

ويورد الاضطخري في الأساس معلومات البلخي (ت 308هـ / 920م) الذي كتب قبل ابن فضلان بقليل وهو يذكر إن الروس يسكنون بسن البلغار (علناقولجا) وبين الصقالبة⁽²⁶⁾ ويتاجرون مع الخزر والروم (البيزنطيين) ومع البلغار. وهم كثيرون جداً بلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على مايلي بلادهم من بلاد الروم وعلى بلاد بلغارا لداخل⁽²⁷⁾ ويميز الاضطخري ثلاثة أصناف من الروس، فيبدأ بالقربين من البلغار ومقر ملكهم في كويابة (كيف) وهي مدينة اكبر من بلغار. ويليهام الصلاوية وأقصى هذه الجماعات هم الارثانية وعاصمتهم إرثا أو ارتاب أو إربا⁽²⁸⁾

ويصل التجار (من المسلمين كما يبدو) إلى مدينة كويابة، ولكن لم يذكر أن أحداً دخل إرثا لأن أهلها يقتلون كل من يطئ أرضهم من الغرباء. وينزل الارثانية بتجارهم في قوارب ولا يخبرون أحداً بشئ من أمورهم ومتاجرهم ولا يسمحون لأحد إن يصاحبهم أو يدخل بلادهم. ويحمل من إرثا فرو السمور الأسود والرصاص⁽²⁹⁾، هذا وتجلب جلود الخز والشمع والعسل من الأراضي الروسية⁽³⁰⁾. ويتحدث الاضطخري عن بعض عوائدهم فيذكر أن الروس يحرقون الموتى، ومتى كانوا من المياسر احرقوا معهم الجوارى بمحض اختيارهن. ويحلق البعض لحيته بينما يسرح البعض الآخر لحيته فيمشطها ويجذلها في ذوائب⁽³¹⁾. ولباسهم قصير وهو القرطاق القصار⁽³²⁾ ويلاحظ الاضطخري أن (روس) اسم للمملكة لا للمدينة ولا للناس، وإن لهم لسان خاص يختلف عن لسان الخزر وبرطاس⁽³³⁾.

ويتابع ابن حوقل الاضطخري مع إضافات محدودة. فيذكر أن الصلاوية اتخذوا (صلا) عاصمة لهم⁽³⁴⁾، وإن إرثا تقع على نهر الروس (الدون)⁽³⁵⁾ ويؤكد ابن حوقل إن التجارة الروسية تأتي دوماً إلى الخزر حيث يدفع التجار العشر، كما إن التجار الروس يواصلون تجارتهم مع الروم⁽³⁶⁾

إن الإشارة إلى الأصناف الثلاثة إنما هي كيانات قبلية سبقت تكوين روسيا القديمة وهي دولة كييف. فالاصطخري يذكر الاتحاد القبلي ومركزه كييف ويبدو إن القبيلة الرئيسية هي يوليانه، والمجموعة القبلية الثانية هم السكان السلوفيين في أرض نوفكروود والمركز مدينة نوفكروود. والمجموعة الثالثة ارثانية وهي كما يبدو تشير إلى الروس حول بحر أزوف والبحر الأسود⁽³⁷⁾

سأدسا : ابن حوقل (367 هـ / 977م):

لقد بين ابن حوقل إن التجارة الروسية تأتي دوما إلى الخزر، وكان على التجار فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم. ويبين أن الذي يحمل من الخزر من العسل والشمع والوبر (الفرو) إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار، وكذلك جلود الخزر⁽³⁸⁾.

كما إن الروس يتجرون مع الروم وبلغار الأعظم. ويحمل من إرثا السمور السود والثعالب السود والرصاص وبعض الزنبق⁽³⁹⁾.

ويشير ابن حوقل إلى مآثرهم الحربية في زمنه وسنرجع إلى ذلك. ويبين أنهم أخرجوا بلغار والخزر سنة 358 هـ / 968م. ومن دلائل توسعهم في زمنه أنه يذكر الأراضي التي توسعوا إليها ويسمونها بلاد الروس. ثم يذكر من عوائدهم ولباسهم ما أورده الاصطخري⁽⁴⁰⁾

سابعاً: ابن فضلان (309 - 310 هـ / 921 - 922 م):

لقد أعطى ابن فضلان معلومات مباشرة عن التجار الروس الذي رأهم لدى بلغار وهو الفولجا. وهو يبين أن مدينة البلغار على بعد فرسخ من اتل⁽⁴¹⁾ ثم يتبين بعدئذ أنه يقصد بأتل النهر العظيم الذي يصب إلى بلاد الخزر وهو نهر (الفولجا) إذ أنه وجد ملك البلغار في منطقة قريبة من النهر المذكور على بعد فرسخ⁽⁴²⁾. وكان البلغار في أعالي الفولجا قرب خط عرض من 53⁽⁴³⁾.

تحدث ابن فضلان عن الروس، وجلب انتباهه صحة أبدانهم إذ يقول: (فلم أر أتم أبدانا كأنهم النخل شقر خمر). وهم لا يلبسون القروط ولا الخفاتين (ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على إحدى شقيه ويخرج إحدى يديه منه)⁽⁴⁴⁾. ويحمل كل رجل سيفاً وسكينا وفأساً (وهي الفأس النورسية). وسيوفهم عريضة (صفائح مشطبة إفرنجية). ويزينون أجسامهم بالوشم من العنق إلى أطراف القدمين فيرسمون الأشجار والصور وغير ذلك⁽⁴⁵⁾.

وتحمل كل امرأة حقة (للطور) مشدودة على ثديها، وتصنع من الحديد والنحاس والفضة ولذهب (على قدر مال زوجها ومقداره)، وفي كل حقة حلقة تربط إليها سكبنة وتشد على الثدي أيضاً. وهن يزين أعناقهن بأطواق من الفضة والذهب، وعددها يتناسب مع ثروة زوجها، فكل عشرة آلاف درهم يملكها الرجل يقابلها طوق يصوغه لامراته ولذا ربما كان في عنق المرأة الواحدة أطواق كثيرة. وينتقد ابن فضلان التجار الروس لقلة نظافتهم ولعدم اعتنائهم بالاغتسال. وهم يكثر من شرب النبيذ صباح مساء⁽⁴⁶⁾

ويأتي هؤلاء التجار في سفنهم ويرسون في نهر اتل وبينون على شطه ببوتا كبيرة من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ومعهم الجواري (للبيع) ولكل منهم سرير .

ثم يصف احترامهم للصور الخشبية وتقديسهم لها وتقديمهم الهدايا لتيسر لهم بيع تجار اتهم ، ومتى باعوها ضحوا الاضحيات لهذه الصور ⁽⁴⁷⁾ . ومن الواضح إن هؤلاء وثنيون . إذا تمرض أحدهم أقاموا له خيمة من ناحية ووضعوا معه شيئا من الطعام من خبز وماء ويتركونه لوحده وخاصة إذا كان فقيرا أو عبدا ، فإذا شفي عاد إليهم وإذا مات احرقوه وأما العبد فيترك للكلاب والجوارح ⁽⁴⁸⁾ . ويشير الى كرههم للسرقة ، فإذا امسكوا بلص أو وسارق شدوا حبلا في عنقه وعلقوه على شجرة وتركوه عليها حتى يتلف ⁽⁴⁹⁾ .

ويسهب ابن فضلان في وصف مراسيم حرق الموتى وما يترك من مؤنة ومتاع مع الميت . وإذا مات احد رؤسائهم احرقوه مع من يرغب من عبيده رجالا ونساء وأكثر ما يفعل ذلك الجواري . ويصف مشهد سفينة احرق عليها ميت مع الأضاحي حوله وطريقة قتل من يرغب ان يحرق معه بالخنق والطعن . ومن المعتاد ان يشعل النار اقرب الناس إلى الميت، فإذا تعالى الدخان فان مصير الميت أسعد والجنة بنظرهم (حسنة خضراء) ⁽⁵⁰⁾ ويعتقد الروس إن أرواح أعدائهم الموتى تلاحقهم الى العالم الآخر ولذا فإنهم يقتلون أنفسهم حين يحسون بخطر تعرضهم للأسر ويؤيد ذلك مسكويه ⁽⁵¹⁾ . ويحط بملك الروس أربعمائة رجل من (صناديد أصحابه) وهم يموتون بموته ويقتلون دونه . ولكل منهم جارتان واحدة للخدمة والأخرى للفراش . وهن يحيطن بسرير الملك وهو سرير عظيم مرصع بأفيس الجواهر . ولملك خليفة (يسوس الجيوش ويدافع الأعداء ويخلفه في رعيته) ⁽⁵²⁾ ونلاحظ ان ابن فضلان يتحدث عن ملك الروس ، ويبدو ان هذا يتصل بانتهاء فترة الخاقانية ككيان متميز بعد قيام دولة كييف . وبهذه المناسبة نذكر ان ابن فضلان يسمى ملك البلغار (ملك الصقالبة) وهو محق في ذلك فالمسعودي يقول عن البلغار : ((وهم نوع من الصقالبة) ⁽⁵³⁾

ثامنا: المسعودي (332 هـ / 943 م) :

يشير المسعودي وهو مؤرخ وجغرافي في مروج الذهب وفي التنبيه والإشراف الى معلومات جديدة ومستقلة . يبين المسعودي أن (بحر نيطس هو بحر البر غر والروس وغيرهم من الأمم) . ثم يقول في محل آخر (أن بحر مايطس (الأزوف) ونيطس (الأسود) هو بحر البر غر والروس) ⁽⁵⁴⁾ ففي كلامه نلمس عدم الوضوح عن ما يضمنه عن مايطس إذ يقول (ويتصل (نيطس) ببحيرة مايطس وطولها ثلاثمائة ميل وهي في طرف العمارة من الشمال وبعضها تحت القطب الشمالي أن فكرته ليست واضحة عن مايطس (الأزوف) من ناحية السعة والامتداد فهو يسميه مرة بحرا ومرة بحيرة ويراه يمتد الى تحت القطب الشمالي . ولعل هذا الغموض يساعد على فهم نص آخر له يبدو عليه الارتباك . يقول المسعودي (وفي

أعالي نهر الخزر (الفلوجا) مصب يتصل بخليج من بحر نيطس وهو بحر الروس لا يسكنه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحلهم⁽⁵⁵⁾ . فلا يمكن أن يكون بحر الروس هو بحر نيطس لأن المسعودي نفسه أوضح أنه بحر لهم ولغيرهم . ثم إن نهر الخزر يصب في بحر الخزر (بحر قزوين) فلا بد أن تكون الإشارة لنهر آخر ، والعرب يعرفون نهر تنيس (الدون) الذي يقرب من أعاليه من نهر الفلوجا . كل هذا يعني أن المسعودي يقصد نهر الدون الذي يصب في بحر ازوف ويمكنه أن يسميه بحر الروس ، والذي سماه ابن الفقيه بحر الصقالبة ، إشارة لفترة اسبق . واذن فبحر الروس عند المسعودي هو بحر ازوف وليس بحر البلطيق كما ظن بعض الباحثين⁽⁵⁶⁾ .

ويعطي المسعودي تفسيراً للكلمة روس فيقول (والروم تسميهم روسيا بمعنى الحمر) وهذه إشارة لطيفة ينفرد بها⁽⁵⁷⁾ . ويبين أن الروس (أمة عظيمة لا تنقاد إلى ملك ولا شريعة) ، ثم يوضح بأنهم (أمة كثيرة ذات أنواع شتى فيهم جنس يقال لهم اللوذ عانة (الكوزكانه في التنبيه) وهم الأكثر ويختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية والقسطنطينية والخزر⁽⁵⁸⁾ . وهذه إشارات شاملة للروس وللشمالين ، وإلى أن هؤلاء لهم شيوخ وأمارات لا تنتظمها دولة واحدة . ويذكر المسعودي أن الروس يتاجرون مع بلاد البرغر (البلغار) وأن معدن الصفة كثير في بلاد الروس⁽⁵⁹⁾ . ويظهر من أخباره أن تجارة الروس كانت نشطة عبر بحر مايطس ونيطس إلى خليج القسطنطينية ، أو إلى بلاد الخزر ، وبالعكس عبر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس . كم أنه يشير إلى شعور البيزنطيين بخطرهم فيبين أنه يوجد في أعالي خليج القسطنطينية (بحر مرمرية) (عمائر ومدينة للروم تدعى مسنة تمنع من يرد من ذلك البحر (ازوف والاسود) من مراكب الروس وغيرها) أوفي نص آخر (من مراكب الكوزكانة وغيرهم من أجناس الروس)⁽⁶⁰⁾ . قدر الإمكان هذه إشارة إلى ما بعد القرن التاسع للميلاد .

ثم يتحدث المسعودي بتفصيل عن حملة الروس على الأراضي المجاورة لبحر قزوين بعد الثلاثمائة وما تسببه من رعب وخراب⁽⁶¹⁾ وما بعدها . ويبين المسعودي أنه يوجد سلاف وروس في مملكة الخزر ، وإنهم (جند الملك وعبده) . وهم يسكنون في أحد جانبي مدينة آتل ولهم قاض من بينهم (يحكم بحكم الجاهلية) . ثم يتحدث عن عاداتهم في إحراق الموتى ويقول : (ويحرقون موتاهم ودوابهم والآلة وحلية . وإذا مات الرجل أحرقت معه امراته وهي على قيد الحياة وإذا ماتت المرأة لا يحرق الرجل وإذا مات منهم أعزب زوج بعد وفاته . والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة⁽⁶²⁾ ، والمسعودي يجمع في أخباره بين معلومات مباشرة استقاها من التجار والمسافرين الذين لا يعرفون الأراضي السلافية والذين قابلهم في بغداد أو في الأراضي المجاورة لبحر قزوين⁽⁶³⁾ يقول المسعودي : فلم أر فيمن دخل بلاد الخزر من التجار ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس) وبين معلومات قديمة ، وجل معلوماته جديدة ومتينة .

تاسعا: الإدريسي (560 هـ / 1160م):

يعطي الإدريسي معلومات جديدة عن الروس، وقد وضع المعلومات القديمة إلى جانب الجديدة كما فعل غيره، فهو يكرر المعلومات المألوفة عن حرق الموتى بين الروس وعن ملابسهم وأشكال لحاهم، وعن تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف. ويبين أن روسيا تقع في الإقليم السابع في القسمين الرابع والعاشر ولكن الجزء الأهم منها يقع في القسم الثاني، وهو يشير إلى أراضي المراعي وإلى قرى مهجورة وإلى الثلج. ويتحدث عن مدن روسية مثل هلمجارذ وهي مدينة كثيرة السكان تقع على جبل صعب المرتقى وأهلها يتسلحون خوفا من اللصوص ويبين مدن أخرى مثل سنبولي ومولينشقطه وهي على نهر ديسنا وهما مدينتان عامرتان. ثم يبين الإدريسي أن بلاد الروس شاسعة، وإن القسم الخامس من الإقليم السابع يحوي القسم الشمالي من بلاد الروس ويشمل الحوض الأعلى لنهر الدنيبر والخط الساحلي لشبه جزيرة كولا وهذا الجزء ضيق ومحصور بين جبلين (64) وإذا استثنينا الإدريسي فأننا لانجد أي معلومات جديدة بعد القرن الحادي عشر الميلادي.

عاشرا: ياقوت الحموي (685 هـ / 1229 م):

يقدم في معجمه معلومات مقتبسة من أسلافه فيبدأ بفقرة من المسعودي، ويورد ما جاء في كتاب البدء والتاريخ للمقدسي بنصه، ثم يأخذ اقتباسا طويلا من رحلة ابن فضلان (65).

الحادي عشر: القزويني (682 هـ / 1283 م):

يورد القزويني كتابه (أثار البلاد) بعض المعلومات عن الروس ولكنها مرتبكة لا تجدي نفعا عدا ماورده عن بحر ورنك (لبلطيق)، يسمى بحر نيطنش بحر الروس (66).

الثاني عشر: ابن سعيد المغربي (685 هـ / 1286 م):

يقدم في كتابه (بسط الأرض) معلومات قليلة. فيبين أن بحر مانيطنش (الأزوف) فيه جزائر يسكنها الروس وهم الآن على دين النصرانية ويبين أن هذا البحر يدعى بحر الروس، ويذكر أنه زار الروس ولهم مدن كثيرة على بحر نيطنش وما نيطنش. ثم إن ابن سعيد إلى مدينة (روسيا) ويسميتها (قاعدة الروس) ويبين أنها على ضفة نهر يخرج من بحيرة طوما (بحيرة المن)، ويخلط بين نهر لوفات ونهر الدنيبر الذي يبدأ بتلال (فلداي) القريبة من نهر لوفات. ويعطي موقع مدينة روسيا بخطوط الطول والعرض. وأخيرا يقول عن الروس (وهم خلق كثير من أشجع خلق الله وفي وجوههم طول) (67).

الثالث عشر: الدمشقي (727 هـ / 1326 م):

يقدم الدمشقي معلومات منقولة في الغالب ممن سبقه ولكنه نسقها حسب اجتهاده. فيبين أن الروس ينتسبون إلى مدينة اسمها (روسيا) على شمال بحر الروس. وهو أقل دقة من ابن سعيد في وصف هذه المدينة وهي قريبة من

بحيرة (المن) إلى الجنوب منها (68)، ويذكر ان نيطس او البحر الأسود هو بحر الروس وبجزاير عامة تسمى الروسية) وإنهم نصارى . ولكنه غير واضح في تحديد موقع هذا البحر ويعكس الارتباك الحاصل في الروايات. فيذكر على قول أن بحر نيطس (بحر مستقل بنفسه يخرج من خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم) ، وهذا يصدق على البحر الأسود . ثم يعود ويورد قولاً آخرًا هو (ويقال إنه خليج يخرج من البلطيق على ظهر بلاد الصقالية، وظهر بلاد البلطيق الخ) وهذا يصدق على بحر البلطيق. وهو يعترف بأنه يردد أقوال (المعنيين بعلم البحار) (69) ويبين الدمشقي ان الروس لهم جزائر في بحر مانيطس (الازوف) يسكنونها ، ولهم مراكب حربية يقاتلون عليها الخزر ، وهذا أقرب إلى الدقة مما اورده عن جزر في البحر الأسود .

ثم يتطرق إلى طرق تجارتهم وحملاتهم ، فهم يسبغون في فرع للفلجا يجري إلى البحر الأسود وعند وصولهم إلى النهر الرئيسي (الفلجا) ينزلون إلى بحر قزوين ، وهذا يحتاج إلى توضيح إذ يبدو انه يعتبر نهر الدون فرعاً لنهر الفلجا إذ يذهب الروس في الدون من بحر أزوف ثم ينتقلون إلى الفلجا ويسبغون فيه إلى بحر قزوين . ويبين أن الروس كانوا مجوساً ثم تنصروا ، ويورد رواية ابن الأثير عن سبب تنصرهم عام 275هـ / 985م (70) يقول ابن الأثير (وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان ارمانوس وهما باسيل وقسطنطين وضيق عليهما فراسلا ملك الروسية واستجداه وزوجاه باخت لهما فامتنتعت من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين فتنصر وكان هذا أول النصرانية بالروس) (71) ومن هنا يتضح ان الدمشقي جمع المعلومات المتيسرة بما فيها من اضطراب وقدمها بأمانة .

الرابع عشر : أبو الفداء (721 هـ / 1321 م) :

لم يورد في كتابه تقويم البلدان من جديد يستحق الذكر ، ولكن وجهته لها دلالتها . فهو يبين ان بلاد الروس شمالي العمارة ، وأنهم شمال مدينة (بلغار) ، ويشير الى قوم شمالي الروس يتصلون بساحل البحر الشمالي . وقد اخذ معلوماته عن بعض من سافر الى تلك البلاد. ثم يذكر مدينة (روسيا) ويبين أنها في شمال الإقليم السابع ، وقد نقل معلوماته عنها من ابن سعيد .

خامس عشر : ابن الوردي (ت 850هـ / 1426 م) :

ان محاولة ابن الوردي في جمع المعلومات عن روسيا هي آخر محاولة لجمعها وتنظيمها فهو يتحدث عن أرض الروس ويبين أنها (ارض واسعة الأقطار إلا إن العمارات بها متقطعة لا متصلة . وبين البلد والبلد مسافة بعيدة) . ثم يصف أرضهم الرئيسية ويقول: (وأرضهم بين جبال محيطة بهاو تخرج من هذه الجبال عيون كثيرة تقع كلها في بحيرة تعرف بطوهي (72) وهي بحيرة كبيرة في وسطها جبل عال فيه وعول كثيرة . ومن طرفها يخرج (نهر دياتوس) وهذا الوصف ينطبق بوضوح على منطقة نوفكود، منطقة البحيرات الوسط ، ويبدو ان البحيرة

هي بحيرة المن التي تتصل بها أراض واطئة من المباحس ويبدو أنها تتسع في موسم إلا مطار . وأما النهر المشار إليه فيحتمل أن يكون نهر دويينا الغربي ، لكن الأرجح عند الجغرافيين العرب ووفقا لمعلوماتهم اعتباره نهر الدنيبر⁽⁷³⁾ .

ويذكر ابن الوردي إن بحرنيطش (الأسود) هو بحر الروس، وإن الروسية على ساحله الشمالي⁽⁷⁴⁾ . ويبين في محل آخر إن الروس بين بلغار والصقالبة ويشير إلى قصر النهار عند الروس في الشتاء إلى ثلاث ساعات ونصف ويستشهد على ذلك بقول الجواليقي الذي شهد ذلك في بلادهم⁽⁷⁵⁾ . وهذا يعني أن ابن الوردي يتحدث عن مراكز الروس شمال البلغار في منطقة نوفكروود ، وفي منطقة كييف ، وعلى ساحل البحر الأسود. وفي حين يورد المسعودي ذات معلومات حين يقول عن الروس ((وهم امم عظيمة لاينقادون لاحد من الملوك ولاالشريعة من الشرايع)) يشير ايضا الى الطوائف الثلاثة للروس كما جاء في الا صطخري، ويبين أخيرا ان الروس اكتسحوا بلغار واتل (مدن الخزر) سنة 358هـ وفق إشارات ابن حوقل .

الخاتمة

ان استعراض معلومات الجغرافيين العرب ، يعطنا فكرة عن بدايات الدولة في روسيا وعن التطور السياسي ، وإن كان ذلك لا يخلو من اضطراب . فقد عرف الجغرافيون العرب بدايات الفعاليات التجارية للمصقالبة ومنهم الروس ، كما ينعكس ذلك في ابن خرداذبة وابن الفقيه. كما تركزت معلوماتهم الأولى على نشاط الروس التجاري بين البحر الأسود وأزوف الى الفولجا وبحر قزوين ، ويكشف الجغرافيون العرب عن تكوين أول دولة للروس وهي خاقانية أزوف ، وهذا ما لاتذكره المصادر الروسية الأولى .

وقد انتبه الجغرافيون العرب الى الطابع القبلي للروس في الفترة الاولى ، والى إنهم يعتمدون على التجارة والحرب في حياتهم العامة ، ثم يتحدثون عن الأصناف الثلاثة للروس ، وهم يشيرون بذلك الى اتحادات قبلية تتركز حول مدينة من المدن ، وسموا ثلاثة مراكز لاتحادات ثلاثة هي نوفكروودوكيف وارتا (فرب أزوف)، ويبدوأنه كان لكل من هذه المدن كيائها الذاتي في تلك الفترة ، ولكل رئيس

لم يميز العرب الشماليين (الورنكيين) وبين الروس ، إذ ان الشماليين كانوا يجهزون المقاتلين الاجراء (المرتزقة) ، ولم يعرفوا كيف توصل بعض هؤلاء الى السيادة واصبحوا سادة بعض المدن .

وقد لاحظ الجغرافيون العرب انتقال الروس من المجوسية (عبادة الصور والأوثان) الى النصرانية ، وأشاروا الى البدايات في القرن التاسع والى تنصر ملكهم فلاديمير في أواخر القرن العاشر وشيوع النصرانية بينهم ، وانتبه الكتاب العرب من جغرافيين ومؤرخيين الى حياتهم العسكرية وخاصة في منطقة بحر قزوين وهذا مكنهم من تقديم معلومات مباشرة عن قبلياتهم وأدوات قتالهم ومراكبهم وعاداتهم .

ويلاحظ أن الجغرافيين المتأخرين ركزوا معلوماتهم على منطقة نوفكروود وكيف، دون منطقة أزوف والاسود ، فكثرت إشاراتهم الى مدينة روسيا ومدينة كويافا (كيف)، وقد جاءت بعض معلوماتهم من تجار أو مسافرين بعد القرن العاشر وان كانت قليلة .
ويؤخذ على الجغرافيين العرب المتأخرين جمعهم للمعلومات من فترات مختلفة وإغفال التدرج التاريخي وان كان مظهرا لامانتهم العلمية .

الهوامش:

١. ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص 154
٢. يقول ابن الفقيه :((فأما تجار الصقالبة فيجمعون جلود الثعلبية وجلود الخزر من أقصى صقلية فيجئون إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ، ثم يجيئون في البحر إلى سمكوش اليهود ، ثم يتحولون إلى الصقالبة))
٣. يقول : ((ارض روم من إنطاكية إلى صقلية ومن القسطنطينية إلى تولية والغالب عليهم رومي وصقلي والأندلس صقالبة))ابن الفقيه ، المسالك والممالك ، ص 136
٤. يرى جراكوف أن ابن خرداذبة يقصد بالروس ، منطقة كيف وبالصقالبة أهالي منطقة نوفكروود . Kiev rus p.597
5. The Making of the Russian Nation H.Paszkievicz (London1963) p.148
٦. ويشير ابن حوقل إلى نهر الروس ، صورة الأرض ، ص 386
٧. ابن الفقيه ، المسالك والممالك ، ص 271
8. Art Rus,1V P.1182
9. Hudud al ALam p. 43
10. Vernadsky , Ancient Russia p.284
11. Vernadsky,origins . p.190
١٢. البيروني ، صفة المعمورة ، ص 4
13. R Frye, MO uslim World 1951 p.21
14. Vernadsky,Ancient Russia p284
15. Vernadsky,Ancient Russia p 191
١٦. الاغلاق النفيسة ص 145
١٧. البيروني صفة المعمورة ، ص 98 ص 100
١٨. مسكويه ، تجارب الامم ، ج 2 ، ص 66
١٩. المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 66
٢٠. الاغلاق النفيسة ، ص 146
٢١. المصدر نفسه ، ص 145 - 147
22. Vernadsky,Origins p191
23. Vernadsky,Ancient Russia p283
24. ابن رسته ، الاغلاق النفيسة ، ص 145
25. البدء والتاريخ ، ج 4 ، ص 66
26. مسالك الممالك ص 10

27. المصدر نفس ص 227
28. الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص 255
29. المصدر نفس ص 226
- 30 . المصدر نفس ، ص 221
- 31 . المصدر نفس ص 227
32. القراطق سراويل معروفة عند الشماليين وتسمى R.frye Muslim world,1951 p32
33. الاصطخري ، ص 130
34. صورة الأرض ص 297
35. المصدر نفس ص 386
36. المصدر نفس ص 297
- 37.A .Gerkov- kiev Rus p.597
- 38 .صورة الأرض ، ص 392
- 39 . المصدر نفس ، ص 397
40. المصدر نفس ، ص 386
- 41.رحلة ابن فضلان ، طبعة طوغان ، ص 26
42. المصدر نفس ، ص 31
43. R. Frye opt.cit p3243
44. R. Frye opt.cit p32
- 45 .رحلة ابن فضلان ، طبعة الدهان ، ص 149
46. المصدر نفس ، ص 151 ، ص 152 ، ص 156
47. المصدر نفس ، ص 151 ، ص 153 ، ص 154
48. المصدر نفس ، ص 154 ، ص 155
49. المصدر نفس ، ص 155
50. المصدر نفس ، ص 156
51. تجارب الأمم ج 2 ص 67
- 52 . الرحلة (ط. الدهان) ص 165 وكذا ط . طوغان ص 42.
- 53.المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 141
54. المسعودي، مروج الذهب ، ج 2 ص 24
55. المصدر نفس ، ج 2 ص 24
56. البيروني، ي ، صفة المعمورة ص 83 - 84 .
57. المسعودي ،التنبيه والإشراف ص 141
58. المسعودي ،مروج الذهب ج 2 ص 15 ، 18 والتنبيه والإشراف ص 141
59. المسعودي ،المروج ، ج 2، ص
60. المسعودي ،التنبيه ، ص 140 - 141
61. المسعودي، المروج ج 2 ص 18
- 62.المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 9، ص 11 ، ص 12
63. المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 17
64. كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ج 1 ص 279 - 294
- 65.معجم البلدان ج 2 ص 834
66. أثار البلاد وإخبار العباد، بيروت 1960، ص 612، 617

67. ابن سعيد المغربي، ص 136
68. الدمشقي، نخبة الدهر، ص 261
69. المسعودي، المروج، ج 1، ص 273
70. الدمشقي، ص 261- 262
71. الكامل، ج 9، ص 31
72. تقويم البلدان، ص 201
73. خريدة العجائب ص 22
74. المصدر نفسه، ص 81
75. المصدر نفسه، ص 81

المصادر والمراجع

١. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، باريس، 1840
٢. الاصطخري، مسالك الممالك باعتناء محمد عبدا لعال الحسيني، القاهرة، 1961.
٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الطباعة، القاهرة، 1290هـ
٤. ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1929.
٥. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن، 1889.
٦. ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ليدن، 1897.
٧. ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض تطوان، 1958
٨. ابن فضلان، رسالة ابن فضلان باعتناء سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، 1960.
٩. ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، 1885.
١٠. ابن النديم، الفهرست، ليبزج، 1871.
١١. ابن الوردي ابو الحفص عمر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، المكتبة التجارية القاهرة بلا.
١٢. الدمشقي، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، 1866.
١٣. القزويني، اثار البلاد واخبار العباد، بيروت، 1960.
١٤. ابو الفداء، تقويم البلدان، 1840.
١٥. المسعودي، مروج الذهب، باريس، 1877.
١٦. المسعودي، التنبيه والأشراف، ليدن، 1891.
١٧. مسكويه، تجارب الامم، القاهرة، 1921.
١٨. المقدسي، شمس الدين ابي عبدالله، احسن التقاسيم، ليدن 1885.
١٩. المقدسي، البدء والتاريخ، باريس، 1919.
٢٠. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ليبزك، 1870 كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ج 1، 1963، ج 2، 1965،

- 21.R.Frye,ibn fadlan,muslim World,Gan 195
 22.florinsky, m.T., Russia, ahistory and an gntereton, New York 1953 .
 23.H.paszkievich, the making of the Russion Nation (London1963)
 24.Ve rnad sky , Ancient R ussia New Haven 1945
 25.Ve rnad sky,origins of R ussia ,oxford1959
 26.V.Minorsk,Hudud al ALam ,G.M.S.N.SV1 London 1937



□ خريطة العالم للتدريس.